3

وقال المتهم الأول

obeikan.com

obeikan.com

ظلم المحللون السياسيون ـ حسنو النية ـ حركة الشباب المصري ٦٨ ـ ١٩٧٧م ، ظلمًا بينًا ، إذ جعلوا الحركة ، التي لم يروا إلا تنقلاتها من الهدوء الظاهري ، إلى الفعل المتظاهر ، مجرد رد فعل ـ في كل مرة ـ لأحداث أجادوا صياغتها ، ونوعًا من التمرد الصاخب على مواقف موقوتة ومحددة .

والواقع أن حركة الشباب كانت أكبر من ذلك بكثير ، وكانت أعمق مما صوروه بكثير أيضًا ، لكننا قلنا أننا لا نريد أن نسبق الحوادث، خصوصًا وأن الحوادث سوف تشير بنفسها إلى حقيقة الظلم ـ حسن النية ـ وقصور التصور ، وهو ما لا يغتفر .

وها نحن ذا نبدأ بأحداث فبراير ١٩٦٨م ، التي كانت الجولة الأولى .

قال المحللون ـ حسنو النية ـ أن الحركة جاءت كرد فعل لأحكام الطيران والتي رأى فيها الشباب ـ عن حق ـ أنها أقل مما كان يتوقع لأناس شيبوا الوطن قبل الأوان ، وحفروا في لمحة تجاعيد الهم التي راحت تجري خلالها الدموع ، ولا يتخثر فيها النزيف ، لقد كانت الأحكام واقعيًا شديدة الرحمة ، على من تسببوا ـ كما صور نظام جمال عبد الناصر للشعب ـ في إصابة الطيران المصري بالشلل التام ، في اللحظة الأولى من الحرب ، ومكنوا إسرائيل من تدمير الطائرات المصرية ، والمطارات أيضًا ، بإهمالهم الجسيم ، الأمر الذي ترك قواتنا المسلحة في سيناء عارية بلا غطاء يحميها من شراسة التدمير الجوي ونابالم إسرائيل المتحضرة ، الحارق فكانت الخسائر البشرية ـ دعك من العتاد والخسائر المادية ـ أكبر من أن يتحملها الوطن ولم تخلُ عائلة من ميتم لعزيز ، وميتم صاخب الصراخ في الوجدان ، وكان أن شَلَّ الطيران الإسرائيلي حركة قواتنا ومنعها من الالتحام الأرضي بمدرعات إسرائيل « واحة الديموقراطية في المنطقة » التي راحت تدوس على اللحم المصري وتهصره بجنازيرها المستوردة من بلاد تقدس الحرية الفردية ، وتباهى بأنها التي أعلنت حقوق الإنسان .

دعونا نستمع الآن إلى شهادة المتهم الأول في أحداث الشغب والتظاهرات « حسب توصيفات المباحث العامة في ذلك الوقت للأحداث وللمتهم » لنعرف .

كان المتهم الأول هو « أحمد شرف » أو « أحمد عبد الحميد شرف » ، « وكان عضوًا باللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكي ، وطالبًا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، وهو الآن باحث سياسي حر ، وله دراسات عديدة عميقة الفكر » .

وما أدراك ما منظمة الشباب :

والحقيقة أنني حين أذكر منظمة الشباب الاشتراكي فإن الكبار وحدهم هم الذين سيعرفون عما أتكلم ، لكن الجيل الذي استهدفه ـ جيل الصغار الآن ـ لابد سيتساءلون عما تكون هذه المنظمة .

ولهم أقول :

كانت مشكلة ثورة يوليو ١٩٥٢ « منذ تفجرت وحتى ١٩٧٤م حين قرر أنور السادات أن يوقف علاجها » مشكلتها التي لم تحل هي فشلها الدائم الدائب في إنشاء التنظيم « الحزب الواحد » الشعبي الذي يحمي الثورة ويدفع بها للأمام .

أقامت الثورة تنظيمات عديدة .

في مرحلة إخراج المستعمر ، أنشأت الثورة « هيئة التحرير » .

في مرحلة تجميع قوي الاقتصاد المصري، لإحداث طفرة اقتصادية يحتاجها الوطن أنشأت الثورة « الاتحاد القومي » .

في مرحلة التحول إلى الاشتراكية أقامت الثورة الاتحاد الاشتراكي العربي .

لكن الثورة ـ ممثلة في جمال عبد الناصر لأسباب تاريخية عديدة ـ أحست في كل مرة بقصور شديد في فعالية تنظيماتها ، الذي بدا وكأنه أمر حتمي ـ أو هو كان كذلك .

فعندما كان يحدث وتنشئ السلطة حزبًا كان يهرع إليه ـ أرادت أم لم ترد ـ الانتهازيون الذين يريدون أن ينضموا إلى الجانب الذي يمسك بمقاليد الأمور ، ويهرع إليه أيضًا ، المخلصون الذين يريدون أن يقوموا بواجبهم في تدعيم مسار يؤمنون بضرورة استمراره ، وضرورة تحسين أدائه أيضًا .

وكانت مشكلة تنظيمات الثورة في الانتهازيين ، فهم من ناحية أعلى صوتًا ، وهم أيضًا ـ مريحون للنظام ـ يبررون الأخطاء ويرفعون لواء « ليس في الإمكان أفضل مما كان » ، وهو أمر يسعد النظام في كل الأحيان ، وخصوصًا في أوقات الأزمات .

ولقد وقع النظام الثوري في ازدواجية غريبة في ذلك الوقت ، من ناحية كان لا يريد الانتهازيين ، ومن ناحية أخرى ، كان يرى أن أصواتهم تبدد حرجة في الأزمات ، تهاجم من ينتقدونه بدعوى أنهم من أعداء الثورة ، حتى إذا كان المهاجمون يريدون دفع الثورة وإنجازاتها إلى الأمام في أوقات يرى النظام فيها أنه غير مستعد لهذا الدفع أو أنه غير قادر عليه.

عندما أرادت الثورة أن تتخلص من هذه الازدواجية وأن تبني تنظيمًا يواجه ويعادل توحش المؤسسة العسكرية التي عمدت علنيًا ، ابتداء من ١٩٦٥ إلى « تلعيب » عضلاتها لجمال عبد الناصر ابتداء من اختفاء المشير عبد الحكيم عامر ، وتصويره لنفسه ، ليغيظ جمال عبد الناصر ، بأنه متيم بالديمقراطية ، مرورًا بأحداث ودعايات القبض على مؤامرة الإخوان المسلمين .

وانتهاء « برقبتي يا ريس »[1] التي جاءتنا بالهزيمة النكراء في ٦٧ ، رأت السلطة أن

(١) هي الكلمة الشهيرة التي رد بها عبد الحكيم عامر قبل النكسة ، عندما سأل عبد الناصر قادة الجيش هل يستطيعون مواجهة إسرائيل إذا جد الجد وبدأت هي بالضربة الأولى ، قالها « عامر » برغم أن القادة كانوا يرون أمرًا مغايرًا لما يراه ، وصدقها جمال عبد الناصر الذي كان لابد أن يعرف الحقيقة .

تلجأ وقتها إلى حل طويل الأجل ، أن تحل المشكلة بالشباب ، أرادت الثورة جادة ومخلصة ، أن تعد قاعدة من الشباب الثوري المثقف ، يكون فيما بعد الرافد الحقيقي الثوري لتنظيماتها « أقول أرادت جادة ومخلصة وأكررها » ، لهذا جاءت المنظمة وليدًا رائعًا ، وكان أن علّمت الشباب أن يناقش بحرية ، وثقفته في انفتاح فكري تحسد عليه أي سلطة ثورية ، مستهدفة في النهاية تشكيلًا هرميًا يبدأ بقاعدة عريضة للغاية ممن انضموا إلى المرحلة التثقيفية الأولى ، على أن يتم الانتقاء من بينهم لعناصر تتسم بالقدرة الأعلى على التحصيل لينضموا إلى المرحلة الثانية ، ويتلقوا تثقيفًا أكثر عمقًا ، بعدها تنتقي منهم من يتصفون بالقدرة على الحركة بين الجماهير ليتلقوا مرحلة ثالثة من التثقيف شديد العمق ، ومن الخبرات التي تمكنهم من الحركة وسط الجماهير ومن الحركة بالجماهير .

كانت المنظمة حلمًا جميلًا يستهدف وجه الوطن وخيره وتقدمه ، وكان لهذا الأمر أعداؤه من البيروقراطيين، الذين أرادوا الأمر سيطرة على الشباب ، ولم يريدوه للهدف الذي كان لم يريدوه سيطرة بشباب حر على مقاليد الأمور في بلد ثوري « أظن الآن أنني قد صورت لك ما يكفي من ألاعيب البيروقراطية والبقية ستأتي » .

ثم جاءت نكسة يونيو ١٩٦٧م ، لتجهض هذا وذاك ، لكنها لم تستطع أن تقضي على شباب تعلموا الكثير على يد أفضل الأساتذة المتاحين في ذلك الوقت ، وبمعاونة موجهين سياسيين « كانوا يسمون المسئولين عن إدارة الحوار مع الشباب ـ كل ليلة أثناء المراحل الثلاث ـ موجهين سياسيين ، وقد كانوا في الحقيقة شبابًا أكثر من ممتاز ، لابد أن نتكلم عنهم ـ في وقت ما ـ وعن الدور العظيم الذي لعبوه في حياة كل المنضمين إلى المنظمة » ، أيضًا لم تقدر النكسة على علاقة كانت قد تكونت بين هؤلاء الشباب وبين جمال عبد الناصر ، علاقة لا تشبه علاقة أي من الآخرين به ، لقد كانت علاقة شباب المنظمة بجمال عبد الناصر علاقة شديدة الخصوصية .

وإليكم مثالًا واضحًا :

تحكي هدى أحمد صلاح الدين « كانت عضو اللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكي عن طلاب الثانوي ، وهي الآن مستشار وكبير مدربي التسويق بمعهد إعداد القادة للصناعة التابع لمجلس الوزراء » كيف التقى بهم جمال عبد الناصر في المعهد الاشتراكي بحلوان، وهي شهادة دالة على العلاقة الخاصة لشباب المنظمة بالزعيم .

تقول السيدة هدى :

« كانت أيام قد مرت علينا ونحن نقرأ ونتعلم نهارًا في معسكر الشباب بحلوان ، الذي أسموه معهد الدراسات الاشتراكية ، أثناء تدريبنا في المرحلة الأولى للمنظمة ، ونناقش ما قرأناه وما تعلمناه ليلًا في خيمة المناقشة مع موجهنا الأستاذ أحمد عبد الغفار المغازي « وكيل وزارة التخطيط الآن » والأستاذ صلاح الشرنوبي « أصبح ملحقنا الثقافي في سفارة موسكو بعدها » عندما أعلنونا أن شخصية كبيرة سوف تزورنا في المعسكر ، وسارت بيننا الشائعات تؤكد أن الزائر سيكون السيد علي صبري ، وفي الساعة الأخيرة وبعد أن رصونا في مدرج يشبه « المسرح اليوناني القديم » ، قالوا لنا : هناك احتمال أن يكون الزائر جمال عبد الناصر شخصيًا ، ولم نصدق أنفسنا حتى دخل علينا جمال عبد الناصر ، فَرُحنا نصفق في جنون عشر دقائق متواصلة ، وانبسطنا انبساطًا غير طبيعي ، كان معه فيما أذكر عبد الحكيم عامر ومحمد فائق وآخرون ، خطب فينا جمال عبد الناصر ، ونحن نحس أننا قد استحوذنا عليه وحدنا ، وأنه أصبح لنا ، أصبح ملكنا ، قال لنا جمال عبد الناصر : أنتم الشباب الذين نعدهم لتولي المسئولية في هذا البلد ، الشباب الذي لن يكون هناك حاجز بينه وبين الثورة ، وكان جمال عبد الناصر فيما قال صادقًا وصدقناه .

ثم قال جمال عبد الناصر :

اسألوا زي ما انتم عايزين .

بسرعة قام الموجهون من أماكنهم ، طلبوا منا أن نكتب أسئلتنا في أوراق نسلمها لهم ، على أن يقوموا هم بتوصيلها إلى جمال عبد الناصر ، وراحوا هم مثلنا يكتبون ، لكن جمال عبد الناصر فاجأنا وفاجأهم بقوله :

مش عايز ورق ، اللي عايز يسألني يقوم ويسألني بنفسه .

وتأكدنا ساعتها أن لا حواجز بيننا وبينه ، سألناه وظل يجيب عن أسئلتنا لأكثر من ثلاث ساعات ، لا أكتب إن جمال عبد الناصر لما قال لنا اسألوني مباشرة رحنا مصفقين له مدة طويلة جدًا ، وكنا فرحين لأننا ونحن نسأله كان يسأل كلًا منا :

إنت عندك كام سنة ؟!

انتهت الشهادة فلنتأملها .

عبد الناصر يزور الشباب الذي سيستمر بالثورة والذي يريد ألا يكون بينه وبينهم حواجز من أي نوع ، لكن الزيارة تقام بشكل سري فلا يعرف الشباب وموجهوهم أن الزائر جمال عبد الناصر إلا في الساعة الأخيرة ، وبشكل غير يقيني !!! « اللجنة المركزية تم انتقاء أغلب أعضائها من هذا الفوج » .

ثم هل لاحظتم الكلمة المعبرة ، أننا استحوذنا عليه وحدنا ، أصبح لنا ، أصبح ملكنا .

هل لاحظتم إصرار الموجهين على أن يكونوا حاجزًا ـ حسب الأوامر ـ بين الشباب وأسئلة تكتب على ورق وبين جمال عبد الناصر الذي لا يريد حواجز .

أخيرًا ، هل لاحظتم أن عبد الناصر عندما قال : « اللي يسألني يقوم ويسألني بنفسه » ، أن الشباب حريص على ألا يوجد حاجز بينه وبين الزعيم، صفقوا له مدة طويلة جدًا ، واهتموا لأن عبد الناصر راح يسأل كلًا على حدة : « عندك كام سنة ؟ » ،

وكأنه ينتظر أن يكبروا بفروغ صبر .

رجال الثورة الذين نزلوا من القطار في طنطا :

تعالوا بعد ذلك لتروا كيف رتبوا مقابلتنا بعبد الناصر في الفوج رقم (١٤) ممارسين عزلنا من جديد ..

أجلسونا في خيام المناقشة لكي تتفق ، كل خيمة مع موجهها ، على سؤال يلقيه واحد من المجموعة على جمال عبد الناصر « لا تنس أن جمال عبد الناصر كان قال منذ وقت طويل : كل واحد يسأل زي ما هو عايز » ، وقد اختارني الموجه لألقي سؤال خيمتنا ، ذلك السؤال الذي لم أعد أذكره الآن ، لكني أضمرت في نفسي فكرة خبيثة .

ما أن أشار جمال عبد الناصر ناحيتنا ، ولم أكن متأكدًا أنه كان يقصدني من بين المتفق عليهم ، والذين كانوا يرفعون أيديهم ليسألوا مثلي ، حتى صحت مفاجئًا الجميع بسؤال لم نكن قد اتفقنا عليه ، صحت مغالبًا خوفي وكلماتي تنطلق سراعًا حتى لا يلحق بي أحد ويوقفها :

ليه يا ريس شلت عبد اللطيف البغدادي ، وحسن إبراهيم ، ويوسف صديق ، وخالد محيي الدين وكمال الدين حسين .... ؟

قال عبد الناصر ضاحكًا :

كفاية ، إنت كده شيلتني الدنيا كلها ، أنا قادر أشيل نفسي .

وبينما كان عبد الناصر يضحك ملتفتًا إلى علي صبري الذي كان يضرب كفًا بكف كان الجميع من حولي وأولهم الموجه يكادون يسقطون من خوف أصابهم بالإغماء ، بينما راح الموجه يقول لي :

إنت مش ديموقراطي ، مش ديموقراطي .

وقال جمال عبد الناصر وأنا أحاول أن أسمعه برغم صيحات المُوَجِّه المكتومة :

شوف يا سيدي ، إحنا زي ما تقول كده طالعين رحلة ، رايحين إسكندرية ، واحد جه في طنطا وقال كفاية على كده ، ونزل من القطار أبقى أنا شلته ؟!!.

الثورة مرت بمراحل ، لما كنا عايزين نطلع الإنجليز ، كلنا كنا في القطار ، طلعوا الإنجليز ناس قالت كفاية كده علينا ، ننزل المحطة دي ، نزلوا ، أمنا رأس المال الأجنبي ، ناس قالت : ننزل ، نزلوا ، اختطينا الخط الاشتراكي .

وفجأة ضحك جمال عبد الناصر وهو يقول :

كمال الدين حسين صمم ينزل .

وبعد الضحكات ، استطرد جمال عبد الناصر :

أنا ماباشلش حد كل واحد والتذكرة اللي قطعها معانا ، وهو حر عاوز يوصل لفين ، اللي باقين معايا ربنا يسهل ويكملوا لحد ما نوصل محطة إسكندرية الاشتراكية .

وضج الجميع بالضحكات ، واقتنعنا .

ووحدي لم أن ليلتها ، لم يرض الموجه ما فعلت ، أخذني إلى حجرته وأحسست به مضطربًا وهو يكرر على مسامعي :

إحنا اتفقنا بديمقراطية على سؤال ، إنت ما ضحكتش عليا ، إنت خنت إجماع زملائك .

عبد الناصر قال : اسألوا زي ما انتوا عايزين .

وإحنا كنا متفقين على اللي عايزينه كلنا .

وأنا سألت عن اللي أنا عايزه ، واللي كان عايز حاجة ثانية كان يسأل .

ولابد أن عبد الناصر لم يعترض على سؤال ، ولابد أن علي صبري لم يوجه نظر أحد إلى خطورة ما سألت عنه ، فقد مات موضوع « اللا ديمقراطي » هذا ولم يفتحه

معي أحد بعد تلك الليلة .

وأصبح يلقى كنادرة ، يضحك لها الجميع .

الآن أنا الذي أضحك ، إذ لم يبق في القطار الذاهب إلى محطة الاشتراكية غير حسين الشافعي ، ومن ؟ أنور السادات !!

على ذكر السادات ، نعود للمتهم الأول :

يقول أحمد شرف : « وأنا هنا أنقل عن مخطوطة لم تطبع بعد لكتابه الجميل الممتع « براءة سياسية » ، وأسمح لنفسي أن أحكي بأسلوبي بعض ما سأورده عنه محافظًا بالطبع على مضمون ما يحكيه ، وعلى براءته السياسية ، تلك البراءة التي طعنت عام ١٩٦٨م وإلى الأبد » .

كان موضوع اللجنة الوطنية ، للعمال والطلبة الذي قاد النضال المصري ١٩٤٦ ، الموضوع الرئيسي ، الذي وقفت عنده جلسات حواري الطويلة مع زكي مراد « محام كبير ومناضل سياسي ماركسي توفي إلى رحمة الله » ، والتي تحولت إلى محاضرات طويلة كان يلقيها علي ، وأذكر أنني بدأت أصطحب زملاء لي من الكلية « كلية الاقتصاد والعلوم السياسية » ، ومن خارجها إلى هذه المحاضرات ، وأهل عام ١٩٦٨ وقد بدأت أفهم معنى « اليوم العالمي للطلاب » (٢١ فبراير من كل عام) ، وكيف أن الاحتفال به تقرر دوليًا لتخليد واستقاء العبرة من أحداث مصرية وهندية وقعت في هذا اليوم .

قلت في العدد الماضي : أن جيلنا كان يبحث عن إجابة لسؤال مؤرق ، لابد أن نفعل شيئًا ولكن كيف نفعله ، إذن لم يكن غريبًا أن يعود الجيل إلى نضال الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ ، يستقي منه الخبرة العملية ، وأظن أن كلنا دون اتفاق فعلنا ما فعله أحمد شرف ، وأذكر أن كتاب الأستاذ شهدي عطية الشافعي « المناضل الماركسي الذي كان يؤيد ثورة ٢٣ يوليو بكل جوارحه ، وبالرغم من ذلك قتله رجال السلطة الثورية في أوردي أبو

زعبل بعد وقت طويل من اعتقاله ، وبيانات تأييد طويلة أيضًا ، وصادقة أرسلها هو لجمال عبد الناصر !!! » ، الكتاب المسمى « تطور الحركة الوطنية المصرية (١٨٨٢ـ ١٩٥٦) ، كان يتم تداوله بين الأصدقاء المهتمين بالسياسة ، منذ يوليو (٦٧) وحتى فبراير ١٩٦٨ ، كما لم يتداول كتاب مثله ، ومنه عرفنا ما عرفه أحمد شرف من المناضل الكبير المحجوب زكي مراد يرحمه الله عن حركة الطلبة والعمال ١٩٤٦ .

عرفنا أن الحرب العالمية الثانية كانت قد انتهت ، وذابت وعود إنجترا المسماة « النظر في المسألة المصرية » ، كما تذوب وعود المستعمر في كل زمان ومكان ، ورأى الشعب أن السعديين والدستوريين وكانوا في الحكم يسعون إلى تحقيق خطة تبقى بمقتضاها معاهدة ١٩٣٦م ، ويبقى التحالف بين إنجلترا ومصر « أي بين قوى قادر ، وضعيف يستجدي ، وهو شكل حقيقي من أشكال التبعية لا تستطيع تزييفه التسميات البراقة » على أن تبدأ مصر بطلب لتسويات معينة عندما تفرغ إنجلترا من مشاكلها ، مشاكل الحرب وإعادة البناء .

ولقد كانت الجماهير تشكك في ذلك الوقت في نوايا الوفد الذي راح يشن حملة صحفية كبيرة مطالبة بالجلاء ، إذ أن الجماهير لم تكن قد نسيت أن الوفد قد جاء إلى الحكم عام ١٩٤٢م ، على دبابات الإنجليز وعلى ألسنة حرابهم أيضًا .

في تلك اللحظات « وهي تشبه إلى حد بعيد لحظاتنا بعد النكسة ، حين كنا نعيش والوطن الجريح يعاني إظلامًا ماديًا ومعنويًا ، وشبابيكنا المفتوحة على المدى ، مدهونة بالأزرق الداكن تحجب عنا رؤيته ، وكنا ـ كذلك أيضًا ـ نريد الكثير من سلطة لا ننسى أنها ترهلت ، وتشرذمت ضد بعضها البعض ، وتسببت فيما آل إليه حالنا ، وفي هوانا على الأعداء » ، في تلك اللحظات قرر الشعب أن يتحرك بنفسه .

***

العمال يبدؤونها والطلبة بعدهم :

بدأ العمال في التحرك .

جمعوا قروشًا قليلة استطاعوا بها أن يبعثوا بوفدين إلى الاتحاد العالمي لنقابات العمال في مؤتمره التأسيسي الأول ، وهناك لم يكتفوا بمناقشة الأجور والبطالة وساعات العمل ، بل جعلوا المؤتمر يناقش وضعية القوات الأجنبية في وادي النيل وأثر الاستعمار البريطاني في تأخر الصناعة المصرية ، ومحاربة الوجود البريطاني للحركة النقابية في مصر ، ومنها حركة العمال ، وأثر الاستعمار البريطاني على الزراعة في مصر ، وسعيه الدائم لكبت الحريات .

وبدأ الطلبة بعدهم في التحرك :

حين علم الطلاب بما فعله العمال ، أضربت كلية اللغة العربية عن الطعام ، وبات طلبتها في الفصول « اعتصموا » ، وفي كل الكليات عقد الطلبة المؤتمرات ، خرجوا بالمظاهرات فكانت مذبحة كوبري عباس ، ثم توالت المظاهرات الشعبية محتجة في الإسكندرية والزقازيق ، والمنصورة ، والسنبلاوين ، أستشهد ثلاثة في الإسكندرية وثلاثة في الزقازيق ، وواحد في المنصورة ، واختطلت المظاهرات الوطنية بجنازات الشهداء الوطنيين التي تحولت إلى مظاهرات عارمة في ربوع البلاد ، واضطرت وزارة النقراشي الفاتح الكبير لكوبري عباس ، على الطلاب ، والذي قتله الإخوان المسلمون فيما بعد تحقيقًا للقول : « من قتل يقتل ولو بعد حين » إلى الاستقالة في ١٥ فبراير ١٩٤٦ ولم يهدأ الطلاب والعمال .

السلطة هي السلطة في أي وقت :

تحدث السراي الحركة الشعبية « هكذا تفعل كل سلطة في البداية ، تحاول أن تظهر بمظهر القوي الذي لا يبالي ، ثم تربكها بعد ذلك استمرارية حركة الجماهير ،

فتقع السلطة في أخطاء في المواجهات ، تدفع ثمنها غاليًا بعدها » ، وجاءت بمن ألغى دستور ٢٣ « إسماعيل صدقي » ، لكن استمرت المظاهرات رغم أنف صدقي والسراي ، واتصل الطلبة بالعمال ، وفي مدرج كلية الطب ــ جامعة القاهرة ، تكونت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، وقررت اللجنة أن يكون يوم الخميس ٢١ فبراير ١٩٤٦ يومًا للجلاء وإضرابًا عامًا .

وهكذا عرفنا من خبرة من سبقونا ، أن الأمور تبدأ بمؤتمر ، إذ لم يحقق هدفه ، يتحول إلى مظاهرة أو اعتصام، تتلوه مظاهرة أو مظاهرات .

والآن وبعد هذه المعرفة الغالية :

هكذا عرفنا ، فلنعد إلى المتهم الأول أحمد عبد الحميد شرف ، ولاعترافاته البريئة سياسيًا .

يقول أحمد شرف : «لذلك فكرت أن تكون مناسبة ٢١ فبراير القادمة (يوم الطالب العالمي الذي يحيي كل عام في أنحاء العالم ذكرى انتفاضة الطلاب في فبراير ١٩٤٦م في مصر) ، توقيتًا مناسبًا لما كنت أنتويه» ، (فلقد اعتدنا في تلك السنوات أن يجد الواحد منا ما كان ينتويه نية عامة لكثيرين غيره هي القاسم المشترك الذي يجعلنا نتكلم كجيل وهذا هو فضل منظمة الشباب علينا أيضًا) .

فماذا كان ينتوي الجيل ؟!

كان ينتوي ألا يسكت وأن تبقى المبادرة في يد جماهير ٩، ١٠ يونيو، هؤلاء الذين سندوا قلب عبد الناصر ، وثبتوا أقدامه ، وصلبوا ظهره، وأبقوه في مكانه من أجل التغيير، وفي نفس الوقت إلى ما يحقق أهدافهم ، لقد رفض هذا الجيل أن يفوض أحدًا ، حتى لو كان هذا الأحد في مكان ومكانة جمال عبد الناصر .

لكن الجامعة لم تكن تيارًا متجانسًا ، وفي رأي أحمد شرف أخذ الفوز في الجامعة

يحدد تيارين للتغيير ، تيارًا يمثل الأغلبية ويدعو إلى التغيير الثوري ، وفي نفس الوقت إلى ضرورة استمرار الثورة، وتوجيه الضربات للقيادات البيروقراطية « انتهازي « ليس في الإمكان أبدع مما كان » ، و« لنهدأ ونترك الأمر للقيادة الثورية وسيادة الرئيس ونفوضه في إخراجنا من الأزمة » ، لكتبة التقارير إياها ، ومارسي السياسة على النهج الأمني أي بطريقة المباحث العامة ، أو تيارًا « هو التيار الثاني » يمثل الأقلية ويدعو إلى التغيير في اتجاه تصفية الثورة ، وضرب المسيرة نحو الاشتراكية ، وكانت قوى هذا التيار غير واضحة بعد ، ولكن أهم ما أذكره أني بدأت أستشعر المسوح الديني يطل من حواراتها .

وبدأت الاتجاهات الدينية في الظهور:

يقول أحمد شرف : « ظهر أسامة غيث ، وهاني خلاف « الأول نائب رئيس تحرير الأهرام الآن ، والثاني سفير لمصر » وقد أخذ هذان الزميلان نهجًا مضادًا للاشتراكية ، والثورة « لا أظن أنه نهجهما الآن فالناس تتغير » على أساس ديني ، بل أخذا يبديان تعاطفًا مع اتجاه الإخوان المسلمين « وهو اتجاه ما زال يحارب إلى الآن معركة انتقامية قديمة مع الثورة وجمال عبد الناصر » .

ويقول أحمد شرف : « في يوم الثلاثاء ٢٠/ ٢/ ١٩٦٨م انعقد لقاء موسع لمجموعة الطلاب من جامعتي القاهرة وعين شمس وكان اللقاء بدعوة مني » « عقد اللقاء أو المؤتمر الموسع بالمدينة الجامعية لطلاب جامعة القاهرة » .

مرة أخرى لا يقلقنكم قوله : « بدعوة مني » ، وإن كنت أرى أنها الحقيقة ، فسوف نورد شهادات آخرين في النقاط الخلافية وسوف نوزد جزءًا خاصًا بعين شمس في أحداث فبراير ١٩٦٨م هذه [١]

(١) راجع هذا الجزء في ملاحق الكتاب في شهادة معتز الحفناوي .

وفي مؤتمر الجامعتين عين شمس والقاهرة ، يقول أحمد شرف :

عرضت على الجميع أن نجعل من ذكرى الاحتفال بيوم الطالب العالمي صباح الغد (٢١/ ٢/ ١٩٦٨م) ، مناسبة لكي يتحرك الطلاب وتتحرك الجامعة لتقول كلمتها في القضايا الخاصة بالسلطة والثورة والدولة .

والآن هل نتوقف لنستظهر الحقيقة :

كل ما أريد أن تلاحظوه الآن أن أحكام الطيران لم تكن قد أعلنت بعد ، فالمحللون ـ حسنوا النية ـ تصوروا أن الطلاب لم يتحركوا إلا ردًا عليها ، ها نحن ذا بدأنا نمسك الخيط من أوله ، لنرد على المحللين حسني النية ، والشيء الآخر الذي أريد أن تلاحظوه أن الأغلبية الساحقة من الطلاب لم يكونوا بعد مضادين لجمال عبد الناصر ، ولا أقول لثورته ، فلم يحدث أن كانت الأغلبية ـ في أي وقت من الأوقات ـ مضادة للثورة ، لقد كانوا أبناءها ، وكانوا يريدون دفعها إلى الأمام بجمال عبد الناصر .

يقول أحمد شرف : « في هذا المؤتمر ، فكرة التظاهر كانت غير مقبولة ؛ لأن التوقع السائد كان يقول بعدم استجابة أغلبية الطلاب لذلك » ، « تذكروا هذا الأمر عندما سيفاجئهم الطلاب بغير ذلك فيما بعد ، أن معجزة حركة الطلاب لم تكن أبدًا في قياداتها بل كانت دومًا فيمن أطلق عليهم السادات فيما بعد لفظة « الطالب العادي » .

إن للمجتمع علينا حقًا :

لكن علينا أن نتوقف لبرهة الآن عن متابعة مؤتمر جامعتي القاهرة وعين شمس (٢٠/ ٢/ ٦٨) ، لنؤكد حقيقة يجب ألا تغيب ، صحيح أن رغبة التحرك الإيجابي كانت موجودة لدى الطلاب ، ذلك أنهم لا يملكون مواقع في العملية الإنتاجية في المجتمع يخافون عليها ، وليسوا أرباب أسر تجعلهم يترددون في الحركة ، ثم إنهم أعداد كبيرة في أماكن محدودة يسهل التحامهم وتحركهم ، لكن الصحيح أيضًا أن فكرة التغيير الثوري ،

ودفع الثورة للأمام كانت فكرة المجتمع كله ، وقد انصبت في أبنائه من الطلاب ، بل إنني للحقيقة وللتاريخ أحدد أن فكرة التغيير بدفع الثورة وحركة المد الوطني للأمام ، وبإصلاح الداخل ديمقراطيًا ، والتي كانت طموحات الشباب الثائر ، فكانت أفكارًا يطرحها الماركسيون في المجتمع ، من أعضاء التنظيمات التي حلت نفسها ، إلى أعضاء الجمعيات الفنية والأدبية وجمعيات المجتمع المدني التي كانت تعاني ـ وما زالت ـ صعوبات جمة في المجتمع المصري ، لقد التقط الطلاب وقياداتهم هذه الأفكار ، ولم تكن قيادات الحركة في أغلبها ماركسية ، التقطوه لأن الطرح كان طرحًا لبرنامج وطني مرحلي يمكن الائتلاف حوله ، هذه حقيقة يجب ألا تغيب عن أذهاننا ، خصوصًا وأن مفاجأة جديدة ـ هي بعد قليل ـ في الطريق إلينا ، نعم مفاجأة ، وكان يجب ألا تكون كذلك ، ذلك أن الطليعة « مجلة اليسار المصري التي أنشأها جمال عبد الناصر ، وأغلقها فيما بعد السادات » كانت قد نشرت شهادات واسعة للعمال وحركتهم النقابية انصبت كلها في الدعوة إلى عملية التغيير الثوري ، وفي المطالبة باستمرار الثورة عن طريق تجديدها برغم هذا كانت المفاجأة مفاجأة !!

يقول أحمد عبد الحميد شرف :

« ونحن منهمكون في هذا الأمر تنامت إلى أسماعنا نشرة أخبار الخامسة بعد الظهر « أي وهم في مؤتمر الجامعتين في ٢٠/ ٢/ ١٩٦٨م ، يتدارسون فكرة أن يبدأ طلبة الجامعات الدعوة إلى التغيير في المجتمع دعمًا للثورة، ودفعًا لها وحماية لأهدافها أيضًا من المتسلطين البيروقراطيين الفاسدين ، الذين تظنهم الثورة أنصارًا!!.. أو هي تحب ـ لأنهم يدافعون عنها في كل الأمور ـ أن تتصورهم كذلك » ، من إذاعة البرنامج العام « كانت إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة في ذلك الوقت ، برغم مرور سبع سنوات على الانفصال فقد كان هناك إصرار على الوحدة العربية » تعلن ـ يقصد نشرة أخبار الخامسة في الإذاعة ، الأحكام في قضية قادة الطيران ،

وأصابتنا هذه الأحكام بصدمة حقيقية ، فلا يمكن أن يكون ثمن التقصير الذي سبب الهزيمة العسكرية بصورتها الحادة تلك عشر أو خمس عشرة من السنوات سجنًا لقادة القوات الجوية تتدرج من الأعلى إلى الأقل رتبة .

مرة أخرى نتوقف ، لكي نرتبها للمحللين ـ حسني النية ـ نرتبها ترتيبها الواقعي .

مجتمع يمر برغبة في التغيير الثوري أيقظتها النكسة ، مفكروه ـ بالطبع اليساريون ـ وعماله من الشرائح الدنيا والمتوسطة ، أصحاب المصلحة في التغيير الاشتراكي يدعون إلى هذا التغيير ، شعب عرف قدرته على الحركة في التغيير إلى الأفضل في ٩، ١٠ يونيو ، عندما فرض إرادته على أعداء الوطن ، أبناؤه من الطلاب يريدون أن يتحركوا بأنفسهم، رافضين فكرة التفويض التي أدت إلى التقويض ، ثم تجيء أحكام الطيران الهزيلة فيظهر للجميع أن السلطة التي نفخت تريد أن تخفي ذقنها بتلك الأحكام ، وأن هذا معناه أنها لن تبدأ بتغيير نفسها ، قبل أن تغير المجتمع ، لهذا كله يتفجر الغضب ، لهذا كله وليس رد فعل ـ كما وصف المحللون حسنو النية ـ كان تحرك الطلبة وكانت دوافعه .

وتتصارع أجنحة منظمة الشباب الاشتراكي :

لنعد إلى ما يقوله أحمد شرف ، فقد ذهب ليعلم منظمة الشباب باتفاقه مع زملاءه من الجامعتين « أن تعلن الجامعة رأيها بمناسبة يوم الطالب العالمي في مؤتمر احتفال كبير ، وأن تعيد المبادرة لجماهير ٩، ١٠ يونيو » .

في المنظمة قابل (أحمد شرف) د. عادل عبد الفتاح « أمين شباب المنظمة في ذلك الوقت ، وجراح القلب بأمريكا الآن » الذي حاول أن يثنيه عن هذه الحماقة !!

ممكن تبلغ الأستاذ أحمد كامل ، ونتشاور في الموضوع « أحمد كامل كان مسؤولًا عن المنظمة بعد د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم الأسبق ، بعدها أصبح (أحمد كامل)مسؤولًا عن المخابرات » .

ورد عادل عبد الفتاح :

الأستاذ أحمد كامل غير موجود .

قال أحمد في ثقة :

بلغ السيد علي صبري ضروري لأننا موش ح نتراجع .

وأحس د. عادل عبد الفتاح إصرار أحمد شرف فقال :

طيب اقعد ، ح نكلم السيد علي صبري ونقوله الموضوع، وهو يدينا القرار الصحيح « هذه صورة من الانتكاسة البيروقراطية لمنظمة الشباب التي سبقت ـ بل كانت كانتكاسات تنظيمات الثورة كلها سببًا في ـ انتكاسة الوطن » ، ولم يتم الاتصال حتى الثانية عشرة مساء فقرر أحمد شرف أن يذهب لينام في بيته على أن ينتظر تعليمات المنظمة الساعة التاسعة صباحًا ، عند قاعدة النصب التذكاري أمام الجامعة « كما اتفق مع د. عادل عبد الفتاح » .

وقبل التاسعة صباحًا كنت أقف بجوار النصب التذكاري ، طالت وقفتي حتى العاشرة (احترف هؤلاء الناس ضرب المبادرات الشبابية بتجاهلها التسويف بضرورة، وانتظار التعليمات ، لهذا بالطبع لم يذهبوا إلى أحمد شرف بأية تعليمات في محاولة واضحة لإجهاض الأمور) ، وأنا مستغرق في محاولة استنطاق الوجوه (وجوه الطلاب الداخلين إلى الجامعة بعد أن سمعوا أحكام الطيران) ، وقياس درجة حرارة الغضب ، غير أن جهاز الرادار البشري لم يسجل أية اهتزازات إيجابية فدخلت الجامعة وقد ارتسم الهم على وجهي .

الآن ، هل يعيد السادة المحللون ـ حسنوا النية ـ تفكيرهم في الأمر ، قبل أن يعيدوا قولهم أن أحكام الطيران كانت سبب خروج الطلبة في ٦٨؟

ويقول أحمد شرف : إنه عندما دخل الجامعة وقد اكتسى وجهه بالهم ، قرر أن

يذهب إلى كل الاحتفالات بيوم الطالب العالمي ، في كل الكليات في محاولة لقياس رأي الأغلبية ، وإمكانية التحرك .

كان احتفال كلية الطب في قصر العيني سيعقد في الواحدة ظهرًا ، سارعت للحاق به ، وطالبت عبد الحميد حسن « رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة في ذلك الوقت ، ثم الوزير الشاب فيما بعد ، ثم محافظ الجيزة الذي انتهت مدة خدمته عند المدعي الاشتراكي متهمًا بما اتهمه به المدعي » ، أن يحصل على تصريح من الأمن بفتح مدرج العميد بدر ، بكلية الحقوق لنقيم احتفالًا رئيسيًا للجماعة .

د. محمود الشريف يتنبأ بالأحداث القادمة! :

ويقول أحمد شرف : أنه قابل بعدها محمود شريف (كان قد تخرج من كلية الطب وفي سبيله لأن يتبوأ وضعه كأستاذ بالكلية ، وكان عضوًا في اللجنة المركزية ، لمنظمة الشباب الاشتراكي في ذلك الوقت ، وأصبح وزيرًا - أسبق - للحكم المحلي) فلما عرف أن أحمد شرف طلب ما طلبه من عبد الحميد حسن تساءل قلقًا :

لماذا طلبت ذلك من عبد الحميد حسن ؟

بصفته رئيسًا لاتحاد طلاب الجامعة .

هل أخبرته بنيتك من وراء الاحتفال ؟

قلت له الحقيقة كلها .

وبان القلق على وجه محمود شريف أكثر من ذي قبل وقال :

لا تأمن جانب عبد الحميد حسن ، اذهب من فورك ورتب أمورك بعيدًا عنه .

وكان الدكتور محمود شريف كأنما يقرأ في كتاب الساعات المقبلة .

بل كان كمن يتشوف الشهور القادمة ، بل السنوات القادمة أيضًا .